الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى عليه وسلم إمام الرحماء ، الذي أثنى عليه ربه فقال " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ " (الأنبياء: ١٠٧) ، والذي رفع لواء الرحمة فقال " لا يدخل الجنة إلا رحيم"، وقال " إنما يرحم الله من عباده الرحماء"، وجعل الرحمة سبباً لدخول الجنة وغيابها سبباً في دخول النار فقد غفر الله لرجل سقى كلباً كان يأكل الثرى من العطش ، وقد دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض

وقد من الله تعالى عليَّ أثناء دراسة الدكتوراة بالاطلاع على تراث التعليم الملطف . وأعجبتني كتابات رواد تلك المدرسة ؛ لا سيما ما كتبه جون مك جي وزملاؤه . أدهشني أن تشرق تلك المدرسة من ظلام الغرب الدامس ؛ بل من أظلم مكان في الغرب ، من أمريكا المادية التي لا تعرف إلا لغة الدولار والدرهم والدينار ، والتي لا تعطي إلا لتأخذ ؛ فلا تعطي باليمين إلا لتأخذ بالشمال أضعاف ما أعطت ، التي لا تعرف إلا لغة مصلحتها ومنفعتها وحسب . والتي خرجت بشبابها وشيبها ، وقضها وقضيضها ، وحدها وحديدها لتخضع العالم لسطوتها وجبروتها ، وتجعله يستسلم ويذعن لمطالبها . من تلك البيئة المجدبة خرج أولئك الرواد لينادوا بالمناقشة الناقدة لنسقهم القيمي ، ومحاولة تحقيق الترابط والاعتماد المتبادل ، وبتحقيق التحرير والمساواة والإنصاف بين القائمين بالرعاية ومن يقومون برعايتهم ، وليشنوها حرباً شعواء على من يسعون إلى تحقيق السمع والطاعة والإذعان والخضوع والخنوع من خلال القسوة والقهر والقمع.

والحق أنني وجدت في تراث تلك المدرسة صدىً للفطرة السليمة التي ينتشر أصحابها في كل زمان ومكان ، ولا يخلو منهم زمان ولا مكان . ورحم الله الشيخ محمد الغزالي إذ يقول في أصحاب الفطرة السليمة : عندما تلمح مواريث الأجيال والحضارات المختلفة في الشرق والغرب ترى أصحاب الفطر الراقية يرسلون الحكمة الغالية والوصاة الثمينة ، ويصرفون وجوههم لتقويم الأوضاع إذا اعوجت ، وتقليل الأخطاء إذا شاعت . إن الحياة من غير هؤلاء باطل ، وكم كان جديراً بالعالم أن يؤرخ لهم بدل أن يؤرخ للساسة والقادة من سفاكي الدماء ومذلي الشعوب .

وعندما طالعت أهداف التعليم الملطف وأسسه وجدت أن هذه بضاعتنا ردت إلينا ، وأننا أحق بالتعليم الملطف منهم ، وأننا – نحن المسلمين – أقدر منهم على تقديم التعليم الملطف . فإذا كان أغلى وأعلى حافز لدى القوم على أن يقدموا الرعاية لذوي الاحتياجات الخاصة والسلوكيات الحادة هو أن يتخيلوا أنهم إخوتهم وأخواتهم ، فما بالنا بالمسلم الذي يوقن ويدين لربه بأن الناس إخوة " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " والذي يقدم رعايته لهؤلاء الأفراد في المقام الأول طاعةً لله وابتغاء وجهه ، وإرضاءً لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول " ابغوني في الضعفاء ، وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم "

ويشهد لذلك جون مك جي ، أحد رواد التعليم الملطف ، إذ قال عندما سئل عن ضعف الإمكانيات في دول العالم الثالث عن تقديم التعليم الملطف ، فقال إن أفقر بلاد العالم أنجح بلاد العالم في تقديم التعليم الملطف لأنه يحتاج إلى الحب والعاطفة قبل أن يحتاج للمال .

ولذا فإنني أردت أن أنقل إلى المكتبة العربية ذلك التراث الذي قد يكون

جديداً وغير جديدٍ عليها في آن . فهو جديد لأنه ربما لأول مرة ينقل إلى العربية ، وغير جديد لأنه كما قلت ، بضاعتنا ردت إلينا . وقد عرضت في هذا الكتاب تعريفاً بالتعليم الملطف وأهدافه وأسسه واستراتيجيته وفنياته وتتبعته في الميدان ، ثم وضعته في الميزان ، فوزنته بميزان السلوكية ، ثم بميزان الإسلام . فما كان من توفيق فمن الله وحده ، وهو حسبنا وعليه التكلان .

علي مسافر

obeikandl.com